بعض الملامح لصانعي ملاحم الأرياف بالشرق الجزائري (ثوار، فلاقة، متمردون...)

الدكتور حفناوي بعلي

من المؤكد أن الذين اصطلح على تسميتهم "بالمسلحين الأحرار" أوالخارجين على الجماعة ، يظهرون كطليعة للمجتمع الريفي ، ويساهمون في إبراز العنف الثوري الريفي، ظهورهم ينبئ بقرب قيام وضعية من الثورة والعصيان الشامل .

وفي هذا الصدد ، فإن الوقت الذي تقوم به قوات الأمن بمطاردة الخارج على القانون ، يكثر الهاربون ويلتحقون بالمتمردين الرافضين للتجنيد ، والفارين من الخدمة العسكرية غالبا بالجبال والأدغال، فينتظمون في عصابات ويخلقون بذلك جوا من اللاأمن، ويقومون بأعمال منسقة استهدف لها الفرنسيون.

وبظهور الخارجين على القانون، ازدادت عمليات اغتيال رجال الجندرمة والقياد سعة واستفحالا ، وشاعت عمليات نهب المواشي ، وحرق مزارع الكولون ، وعرف هؤلاء المتمردون بنعوت كثيرة منها - المنافقين ، ومن أمثالهم ظهر في المنطقة :

محمد الحربي - سيدي حرب - والسلطان سي زغدود ، والحسناوي بن بلقاسم شيخ الحنانشة ،ومحمد الكبلوتي الحناشي ،و(أحمد الروشي) ، وسعيد العمري، "هليل" وغيرهم .

وقد ظلت هذه الثورات الشعبية مجهولة ، ولم تنل اهتماما كبيرا من الباحثين الجزائريين .ولذا كان لزاما أن تحظى بالاهتمام ، وأن تدخل بقوة في سياق كتابة التاريخ الوطني ، وأن لا تظل نسيا منسيا في طي الذاكرة الجماعية.

محمد الحربي " سيدي حرب " ..فتوحات لبدايات الزمن العنابي

تمثلت ردود الفعل الأولى على احتلال الحملة العسكرية الفرنسية لمدينة عنابة، في مقاومة قادها إبراهيم باشا، حيث ظل يحارب من دون هوادة، حتى أخرجهم من المدينة ، ثم تحولت المنافسة على عنابة بين ابن عيسى والفرنسيين. وعندما أيقن ابن عيسى من تغلب الفرنسيين عليه، خرج منها هو وسكانها، ودخلها الفرنسيون من جديد ، واستقروا بها بعد سنتين من احتلال الجزائر. وقد كان احتلالهم لعنابة ، أهم موانئ إقليم قسنطينة سببا في توتر مستمر بين فرنسا والحاج أحمد باي.وقد عين الفرنسيون على عنابة يوسف المملوك. أما إبراهيم باشا فقد احتمى بالجبال ، وواصل مقاومته يحارب الفرنسيين حتّى سنة 1834 ، ثم التجأ إلى مدينة المدية حيث مات.

تعد مرحلة بداية الاحتلال ، من أصعب المراحل التي عرفتها مدينة عنابة ، في تاريخها الاستعماري الأسود إذ عملت قوات الاحتلال على تفكيك البنية التقليدية للمجتمع ، وقسمت الأعراش إلى وحدات إدارية متنافرة ، والأسر الكبيرة المتعاطفة إلى أسر فردية متناحرة ، وعينت على رأسها قيادا من صنيعها ، يأتمرون بأمرها ويسومون أبناء جلدتهم سوء العذاب . ففي هذه المرحلة كادت الطبقات الشعبية الواسعة أن تتحول إلى جثة بلا روح ، لولا لطف اللّه حين قيض لها انتفاضات متقطعة ، يتزعمها أفراد لاتلبث أن تخمد ، ثم تعاود الكرة مرة أخرى ، وهكذا كالعنقاء التي تبعث من الرماد .

ففي شهر جوان 1830 تكوّن بعنابة نوع من الكمونة الثورية تحت قيادة سي رزوق ، وسي أحمد بن الشيخ ، والقاضي سي حساين ، والقاضي سي رجم بي ربايع.

وهكذا انقسمت المواقف داخل مدينة في مواجهة الحملة الفرنسية ، فساندت قبائل المخزن بالسهل جيوش أحمد باي ، في حين تحالفت قبائل الرعايا بالايدوغ مع كمونة عنابة . ثم سكن روع المدينة إلى عام 1835 ، فكان الموعد مع التاريخ مرة أخرى ، و هذا ماجرى مع انتفاضة وتمرد امحمد بلحربي في ضواحي المدينة وفي عمقها .

تجدد مد المقاومة ، متمثلا في انتفاضات محلية ، تزعمها المدعو " امحمد الحربي ". في بداية البدايات ، كانت هناك نافورة عمومية لجلب الماء بوسط مدينة عنابة ، تستقطب عموم السكان في زمن ندرة المياه ، لمدة قد تزيد عن ستة أشهر ، فتنتشر المستنقعات الراكدة هنا وهناك ، ويعم الجفاف فيهلك الزرع والضرع .

فضاء هذه النافورة عادة مايتحول إلى مسرح للعراك والحوادث الدامية، وخاصة عندما يتفاقم الازدحام على النافورة .الأمر الذي دعا بالسلطات الأمنية المحلية ، من سن أوامر عسكرية تنظيمية يجب احترامها في نوبات توزيع الماء على السكان ، وعدم تجاوزها ، وكثير هي الحالات التي يصعب فيها التحكم ، عندما يحدث الجلب والهرج والمرج ، في اندفاع المواطنين

نحو النافورة، ولا سيما عندما يشح تدفقها ويتعرض للانقطاع من حين لآخر . في هذه الأجواء المتوترة ، تلجأ القوات الأمنية إلى تفريق المواطنين تحت ضربات الهراوة والسياط، محاولة التحكم في الوضع ، الذي عادة ينفلت منها .

كان توزيع مياه الشرب بالمدينة ، يتخذ شكلا ارتجاليا وعشوائيا، خاضعا لأولويات تقتضيها أولا حاجة المعسكر الرابض على أبواب المدينة، فتستغرق ساعات ، وبعدها يأتي دور الإيطاليين ثم الكراغلة ، أو الأتراك من أصول جزائرية ، وأخيرا دور الأهالي (العرب) ، أي عندما تكون صهاريج الماء شبه فارغة ، فتثور ثائرة الأهالي ، ويعلنون تحديهم الصارخ للتعليمات التي تضبط عملية توزيع المياه وابطالها ، بالهيجان والزعيق والرشق بالحجارة ، وهنا تتدخل الحماية العسكرية بقوة لتفض الصدمات التي تطول الأهالي والمدنيين من الأجانب على السواء .

في هذه الأجواء المتوترة ، التي تسودها حالات من الفوضى وعدم التحكم في الأوضاع ، والتي تنذر بظهور مقاومة وانتفاضة شعبية عارمة في الأفق العنابي ، يتزعمها أصيل من عنابة ، يدعى " سيدي حرب " .

ففي شهر أفريل من عام 1838 ، يظهر حدث شبه عاد ، لكن عواقبة لامحالة ستكون وخيمة مع مرور الأيام وتقلب الزمن وسيكون بطله " محمد بلحربي " ، الذي دوخ الحامية العسكرية

الفرنسية ، والذي تحول إلى أحدوثة الزمان ، تتداولها الأجيال بشيء من الغرابة والتهويل .

" سيدي حرب " كما يسميه العنابيون بلطف وتحنان ، ولد ببونة من عائلة عريقة قدمت في سالف العصر من مناطق الحروش ، عائلة توصف بالشهامة وحسن الفعال ، كونت لنفسها تجمع سكاني كبير عرف ب " دار الحربي " في عنابة.

كان (امحمد) - المترجم له - يغدو رفقة أخويه محمد وأحمد إلى جامع "شبيكة "، اضمحل الآن ، وحلت محله زاوية (سيدي عبد الرحمن) الواقعة في ركن نهج (القديس أوغستان) ، ونهج (كستيليوني) ، أين كانت تكثر الكتاتيب والجوامع والمدارس ، ويروح بعد الظهيرة إلى العمل تطوعا لجلب الماء لبعض عائلات (العرب) ، ينطلق كالسهم ، خفيفا نحيفا لا يلوي على شيء، يتقد شعلة من نار ، شهما يرتدي لباسا أصيلا محترما نظيفا يلفت الانتباه، ويكسب محبة ووقارا لدى من يعرفه ، يحمل (بلحربي) في ردائه ملامح بواكير العزة والنخوة الوطنية . كان لايثق كثيرا في الأجانب من عموم المالطيين والطليان ؛ الذين استقدمتهم فرنسا ، ظلوا في عيون الأهالي معمرين وكذا مستوطنين دخلاء ، هم ومن معهم من أذيال فرنسا ؛ قيادا و شاوش عرب.

بعد واقعة " طبة المرايا " التي التحم فيها السكان مع الحامية الفرنسية المقيمة بعنابة ، والتي تكبد فيها الجانبان

خسائر فادحة ، اقتنع (بلحربي) أنه لاجدوى من مهادنة " العسكر " والمعمرين ، وأنه يجب الثورة عليهم وإقلاق راحتهم .

وكانت بداية النهاية عندما ، تعرض بلحربي إلى استفزاز صارخ من قبل أحد الضباط أمام حانة ، كان من شأن هذا الأخير أن أطفأ سيجارة بلحربي في خده بكل إهانة واحتقار ، فثارت ثائرته ودعا الضابط إلى المبارزة علنا في ساحة النافورة بالمكان الذي يسمى حاليا - ساحة 19 أوت 1956 - ببلاس دارم ، أسفرت المنازلة عن فوز بلحربي ، حيث طرح الضابط أرضا بضربة رأس قاضية ، سقط على إثرها مغشيا عليه .

أقبل ضابطان كانا يتابعان المبارزة باهتمام ، وشهرا السلاح في وجه بلحربي ، وهوى عليه أحدهما بالضرب المبرح ، أصيب بعده بجروح دامية ، وظل واقفا كالشجرة التي تموت وهي واقفة ، ثم أعطى للريح ساقيه ، وصعد الجبل كأنه على موعد مع القدر.

أعقبه أخواه محمد وأحمد وثلة من المواطنين ومناصريه . هناك فوق التل وبين الفجوج عالجوا جروحه ، وتعاهد الجميع على الانتقام للحربي بكل عنف وضراوة .

كان الحربي متأكدا من نيات الحماية الفرنسية ، التي اتخذت كل الإجراءات ، لتجعل منه كبش فداء ، فاستعد كل الاستعداد ، وعزم على الانتقام الأسود ، وأن يسحق كل من

يعترض سبيله من الخصوم ، فأشهر سلاحه في وجه المدنيين والعسكريين والبوليس والخونة .

تحتفظ الذاكرة العنابية بمشاهد مثيرة ، عن صور الفجائع التي ألحقها بلحربي بخصومه ؛ منها أنه ذات مساء أقبلت فرس نحو " باب المكبر " - جسر الترونشي حاليا - محملة بأربعة رؤوس مدماة على مرآى الأوروبين ، ولم يستطع أحد الدنو منها ، وتركت الفرس هائمة بما تحمل ، وفي الصباح عثر عليها بمقبرة " الطلبة ". ومن ذلك اليوم أطلق على ذلك المكان اسم فرس "باب المكبر" ، ولا يستطيع أحد المرور من هناك ، وأضحى المكان - حسب الذاكرة العنابية - " مسكونا " بالأرواح والأشباح ، التي تظهر من حين لآخر للسكان . لازالت هذه الحادثة تثير الذعر في نفوس الخاص والعام ، وتخوف بها الأمهات الأطفال .

كان بلحربي يقضي أيامه على سفوح جبل ايدوغ ، يترصد حركة الأوروبيين من عل ، ثم ينقض على فريسته كالأسد الهصور ، يستطيع بهجمات خاطفة أن يقضي على أكثر من شخص ، ثم يعود إلى عرينه غانما منتصرا .

تعد تلك الوقائع الفظيعة ، التي أقدم عليها بلحربي بمثابة رد فعل على الجرائم الشنيعة التي أقبلت عليها الحامية الفرنسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حين وطأت أقدامها أرض عنابة ، وتدل على الرفض المطلق للمستعمر الغاشم ، وتمثل أيضا بواكير المقاومة الشعبية المحلية في المنطقة ، والتي لازالت مجهولة الجوانب

وفي حاجة من الباحثين إلى نفض الغبار عنها ، وما لحقها من تعتيم وتشويه من طرف الكتاب الضباط الفرنسيين.

هذه المقاومة التي تزعمها بلحربي لقيت ارتياحا كبيرا لدى أحمد باي، لأنها تمثل وجها من المقاومة الشعبية المحلية ، التي لاتهادن ولا تعرف الركون إلى المسالمة أوالخضوع.

كان من حسن حظ بلحربي أن انضم إلى انتفاضته جماعة من المتمردين بالمنطقة ، يعرفون بسيماهم من أمثال : بن عيكوس وبوشريط ، ورزايقية، أشداء على الحامية الفرنسية رحماء بينهم ، وراحوا يكيلون الضربات تلو الأخرى الخصوم بلا رحمة ولاشفقة . ثم انضم سبعة آخرون من رجال عنابة الأشداء ، وانقسموا إلى فوجين ؛ أحدهما تحت قيادة بن عيكوس ، توجه بعملياته نحو الميناء ، أين يتم شحن وتفريغ الذخيرة الحربية والسلاح ، وذلك لنهب الأسلحة التي تحضرها البواخر القادمة من وراء البحر، للقضاء على الانتفاضات الشعبية المحلية .

أما الفوج الثاني ، فكانت مهمته أشد وأعنف ، إذ يقوم بعمليات فدائية مباغتة ، ضد المدنيين من الأجانب لنشر الخوف والذعر في أوساط عائلاتهم وذويهم ، لعلهم يعودون من حيث جاءوا وكذا ضد عسكر الحامية. اتخذ الفوج وكرا في سفوح " سيدي عيسى " المغطاة بالأحراش وبأشجار الفلين .

وابتداء من شهر جوان من عام 1835 ، استطاعت كتيبة الموت بقيادة بلحربي ، السيطرة الكاملة على شوارع عنابة

وضواحيها ، وضربت ضربتها بقبضة من حديد ، الأمر الذي دفع بأفراد الحامية العسكرية من اتخاذ الاحتياطات اللازمة ، وشددت الناحية الأمنية ، وضيقت الخناق على السكان من الأهالي .

كان فوج الموت في هجوماته يستعمل الخناجر و"موس بوسعادي" ومن يومها ومع كل مطلع شمس ، يعثر رجال البوليس الفرنسي على جثث محزوزة الرأس ، مرمية في قارعات الطرق ونواصي الشوارع .

بلغت بشاعة وفظاعة انتقام جماعة بلحربي أقصى الحدود ، إلى درجة أوقعت القوات الفرنسية في اضطراب وخلخلة ، لم تستطع إزاءها حولا أوطولا .

طالت هجومات جماعة بلحربي الميناء ، وافتكاك السلاح من الحراس والسطو على الذخيرة الحية ، ثم الهروب في اتجاه "رأس الحمراء" ، لتعاود هجوماتها على المصطافين من الأوروبيين على شاطئ " خديجة مرجانة " سابقا - ريزي عمر حاليا - وعلى" شاطئ المرجان " سابقا - طوش حاليا - ولم يسلم صيادو المرجان على امتداد مرسى عنابة إلى القالة .

وحسب الروايات المتعددة أن أتباع بلحربي ، كان الواحد منهم يأتي إلى بيوت الأوروبيين ، طارقا الباب كأنه أحد الباعة المتنقلين ، ثم يأتي على أهل الدار بقطع رؤوسهم ، وبعدها يبعث بلحربي بالرؤوس إلى" أحمد باي" في قسنطينة ، إشارة إلى أن المقاومة في منطقة عنابة لازالت على أشدها .

لقد أقضَّ بلحربي مضجع فرنسا ، وأوقعها في حيرة من أمرها ، فجن جنونها وجندت جنودها ، وأعدت العدة للقضاء عليه فأطلقت عيونها في كل مكان تترصد حركاته ، وسنت جائزة كبرى لمن يقبض عليه ، لأن أعماله تجاوزت مداها ، وأصبح شغلها الشاغل ، حيث أن الرجل كثر أنصاره، وحاز مكانة عالية في نفوس السكان إلى درجة التقديس ، وأصبح يظهر بمظهر الزعيم الروحي أو المرابط ، فاستنفر الجموع بفضل خطبه النارية المحرضة على الاستنفار، والالتحاق بالمتمردين بجبل ايدوغ ، وتسببت ضرباته في تعطيل النشاط التجاري بالمدينة وضواحيها ، وشل حركة صيادي المرجان على الشواطئ أكثر من شهر .

قدم السيد " بأحمد كرميش " - من الدرعان وهو متعاطف مع الاحتلال الفرنسي - شخصه إلى السلطات لنيل الجائزة ، والقبض على بلحربي ، وجهز حملة للهجوم على موقع (عين بوحدادة) ملجأ بلحربي وأنصاره، وشاركت في هذه الحملة أفراد العسكر ، وقوات الصيادين ، في وقتها كان المتمردون قد غيروا الملجأ إلى مكان يدعى (محكين) في سفوح جبل ايدوغ، ولاحقت حملة (كرميش) الجماعة إلى هناك، والتقى الجمعان وجرى هنالك ما جرى.

وبعد المقاومة الميئوسة من طرف حملة كرميش ، قرر المرابطون من جماعة بلحربي فك الحصار ، وذلك باللجوء مباشرة إلى القضاء على رأس الحربة " عكريش " فتسلل بلحربي خارج

طوق الحصار ، واتجه نحو وادي الذهب، حيث يوجد معسكر كرميش ، وقبل الانقضاض على كرميش بلحظات ، أطلق الحراس النار على بلحربي ، وقبل أن يسقط تمكن من القضاء على حارسين، ولاحق كرميش إلا أن هذا الأخير استطاع أن يفر بجلده ، وبعد لحظات قليلة لفظ بلحربي أنفاسه فانقض الجنود على جثة بلحربي تنكيلا وتمثيلا ، وحزوا رأسه الطاهر - وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها - ...قطعت رأس بلحربي، وعلقت بباب الريح - شارع زريبي عبد العزيز حاليا - بمدينة عنابة . كما سقط بقية رفقائه في ميدان الشرف واحدا تلو الآخر .

وذاع الخبر بعد انقضاء أسبوع من وقوع حادثة القضاء على بلحربي ، وتناقلته الصحف السيارة في الشرق الجزائري في الجزائر العاصمة ، وجدد الماريشال كوزيل العهدة للحاكم على أعراش المنطقة العميل "الباي يوسف " للمرة السابعة .

وتسلم الشيخ كرميش الجائزة ، وكذلك منصب " قايد " .

تمكن أنصار و"مريد" و بلحربي من اختطاف رأسه ، الذي علق بباب الريح في وضح النهار ، وضم الرأس إلى الجسد الطاهر ، ودفن في المكان الذي دارت فيه رحى المعركة بين العميل كرميش ومرابطي بلحربي الأشاوس ، عند أقدام سفح جبل ايدوغ ، بالمكان الذي يحمل الآن اسم " سيدي حرب " ومع توالي الأيام ، أخذ أهل عنابة يدفنون موتاهم هناك ، تبركا وإجلالا لصانع

ملحمة عنابة ، إلى أن تكونت مقبرة ، تعرف لدى العامة والخاصة باسم "مقبرة سيدي حرب".

السلطان سي زغدود .. ثورة وجود بلا حدود:

من الثورات الشعبية المجهولة تماما ثورة سي زغدود في منطقة جبل إيدوغ غرب عنابة ، وفي رأس الحديد - بلدية المرسى حاليا - كانت مقاومة وجود وثورة بلا حدود ، امتدت من (القاف إلى القاف) كما يقال ، أي من القالة إلى القل ثم انتشرت بسرعة في الشمال القسنطيني كله .

بعد احتلال مدينة عنابة سنة 1832 ، بدأت المقاومات الشعبية فكانت مقاومة " امحمد الحربي " أو ما يعرف بسيدي حرب عام 1835 ، وأردفتها مقاومة سي زغدود التي دامت من عام 1841 إلى غاية عام 1843 .

كان سي زغدود شيخا على عرش " بني محمد " ، العرش الموزع في المنطقة الساحلية رأس الحديد ، غرب مدينة عنابة ببلدة المرسى أو مايعرف في القديم بمرسى الروم ، أطول رأس امتدادا في بحر الروم (البحر المتوسط) ، كانت تلجأ إليه سفن البحارة والقراصنة الفارة ، أو ترسو للصيد لاشتهاره منذ أقدم العصور بالثروة السمكية ، التي كانت تصدر إلى ايطاليا وفرنسا.

ينتمي سي زغدود إلى عائلة دينية تقليدية ، تحمل لقب " أولاد جمعون". ولد بسوق الأحد - برحال حاليا - على ضفاف بحيرة فزارة حاز على قسط وافر من التعليم فدرس في قسنطينة

والجزائر . تلقى تربية أصيلة أكسبته غير قليل من النخوة والشجاعة . قبل الغزو الفرنسي كان قايدا على عرش صنهاجة وويشاوى - فج موسى - وتوارثت عائلته هذا التقليد على العهد الاستعماري ، فكان أحد أحفاده " جمعون بومراح " يحتل منصب "باشاغا " ، مقيما بناحية المرسى شمل نفوذه اعراش جبل ايدوغ وسهل تريعات وبحيرة فزارة.

دخل سي زغدود في صدام عنيف على أيام بداية الاحتلال الفرنسي لعنابة ، مع القايد بن عيسى وكذا القايد بن يعقوب ، وفي مواجهة مع قوات الاحتلال . الأمر الذي دفع بإجلائه من بحيرة فزارة إلى ناحية - سيدي عكاشة - بالقرب من رأس الحديد (المرسى) ودخل في مواجهة أخرى مع الجنرال غالوا ، ثم التجأ إلى بني صالح عند الشيخ أحمد بن الشايب وهناك استطاع بفضل علمه وسعة ثقافته ، وسحر لسانه وقوة خطابته التأثير في سكان المنطقة ، فأحاط نفسه بمجموعة من المتمردين حرضها على الثورة وضرب القوات الفرنسية .

أعلن سي زغدود نفسه سلطانا على البلاد ، وعين خلفاءه في معظم الأنحاء ، وأول عمل قام به ضد الفرنسيين ، شنه لحرب العصابات ضد الأعمال القائمة لتعبيد الطريق الرابط بين عنابة والحروش ، وقطع أسلاك الهاتف والقيام بعمليات خاطفة فهاجم مراكز القوات الفرنسية وقلاعها بجيش قوته حوالي 6500 من رجال القبائل وشيوخ

الأعراش ، منهم أسماء مثل : سيدي محمد بن عبد الرحمن ، وابن زطوط .

أما أسباب ثورة سي زغدود ، فالمصادر الفرنسية ترجعها إلى التعصب، ورفض الكافر المسيحي الغازي ، ولكن الأسباب الحقيقية نعرفها من خلال جهاد سي زغدود الحقيقي ، ضد الاستعمار الاستيطاني والاستيلاء على الأراضي الخصبة ، وعلى الثروات الغابية والمعادن الباطنية ، التي كانت تزخر بها المنطقة . والرد العنيف على طرد المواطنين إلى الجبال والأحراش .

تذكر المصادر أن منطقة إيدوغ غرب عنابة - المرسى - كان يسيرها قايد استمر في القيادة وفي حكم اعراش المنطقة وفي شيوخها منذ أواخر العهد العثماني .ومن شيوخها " سي زغدود " كان وظيفة هؤلاء القياد جمع الضرائب من الأعراش ، وتسليمها إلى القيادة المركزية العسكرية بعنابة في أوقاتها المحددة . وقد زار سي زغدود عنابة قبل إعلانه الثورة لخمسة عشر يوما .كما تذكر المصادر أن السبب المباشر للثورة هو عزل القايد القديم، المتحكم في الأوضاع المدعو" سي كرميش " وتعيين أحد صنائع الجيش الفرنسي المحتل من فرسان الصبايحية يدعى " بن بركوش " . كما رفضت قبيلة بني محمد المتواجدة على مستوى منطقة " المرسى " دفع الضرائب له ، وفضت أيضا أعراش ايدوغ هذا التعيين . وفي الوقت نفسه بدأت تظهر طلائع من المعمرين الأوائل من فرنسيين وايطاليين ومالطيين ،لاستغلال الثروة السمكية وقشرة

اشجار الفرنان المثيرة بالمنطقة ولتثبيت هذا الأمر الواقع ، أمرت القيادة العسكرية الضابط " ألوم " بتنظيم حملة عسكرية ، لتأديب الأعراش التي رفضت القايد الجديد الصبايحي بن بركوش .

خرجت الحملة العسكرية يوم 17 جوان 1841 من مدينة عنابة ، تضم مجموعة كبيرة من الجنود الفرنسيين ومجموعة كبيرة من قومية القائد الجديد بن بركوش ، واتجهت نحو منطقة ايدوغ وجمعت الضرائب من أعراش ويشاوي والتريعات وصنهاجة .

وفي يوم 19 من الشهر نفسه وصلت إلى عرش بني محمد ، فنصبت خيامها وطلبت من سي زغدود ضرائب عرشه ، فماطلهم إلى ما بعد الظهر بحجة إتمام جمعها ، لكن الضابط الوم أحس بشيئ غير عادي ، فطلب من القايد بن بركوش الانسحاب والعودة إلى مدينة عنابة . وعندما بدأ الضابط الفرنسي في الانسحاب أطلق سي زغدود النار عليه وقتله .

وفي الوقت نفسه خرجت مجموعة كبيرة من الأحراش القريبة ، أطلقت النار على الفرقة العسكرية المرافقة له ، فقتلوا بعضها والبعض الآخر استطاع الفرار .

في يوم 21 جوان 1841 وصل خبر مقتل الضابط "الوم" إلى قائد منطقة عنابة الجنرال لافونتان ،فجهز بسرعة حملة عسكرية من حوالي خمسمائة جندي ، وقادها بنفسه واتجه نحو عرش " بني محمد " لينتقم من سي زغدود ، الذي غنم من العملية

السالفة الذكر عدة خيم عسكرية ، وحوالي 30 رأسا من الخيول والبغال وعدة أسلحة متطورة ، وحوالي خمسمائة ألف فرنك فرنسي بالإضافة إلى تجهيزات أخرى ، وكان واعيا بعواقب ما أقدم عليه . فاستعد بالمرصاد لقوافل الجنرال لافونتان ، وتركه يتوغل في شعاب المنطقة وهاجمه من كل جهة ، واندلعت معركة كبيرة بينهما انتهت بانتصار سي زغدود وموت العديد من الجنود الفرنسيين ، وعودة فلولهم خائبين إلى مدينة عنابة . وبهذا الانتصار أصبح سي زغدود سيد المنطقة الساحلية الممتدة من عنابة إلى سكيكدة. وحاصر الفرنسيين في مدينة عنابة ، وأصبح الإقليم الريفي خارجا عن طاعتهم ، وقد هاجم المدينة نفسها عدة مرات في شهري أوت وسبتمبر من السنة نفسها ، ونتيجة لفشل الجنرال لافونتان في التغلب على سي زغدود ، أبعد من قيادة عنابة وعين مكانه في شهر أكتوبر سنة 1841 الجنرال راندو. وبعد استقراره نظم حملة عسكرية ضخمة في شهر نوفمبر من السنة نفسها ، تضم أكثر من ألف جندي ، واتجه بها نحو منطقة ايدوغ ، وبدأ يطبق الاستراتيجية الجديدة التي جاء بها " بيجو " من فرنسا ، وهي القتل الجماعي وإحراق القرى إتلاف البذر والحصاد ومصادرة الحيوانات . وفعلا عاث الجنرال راندون في منطقة ايدوغ فسادا ، فحرق جميع المزارع التي وجدها أمامه في أعراش التريعات وصنهاجة وبني محمد وغيرهم ، ومن جملة ماقتل أربعة أخوة لسي زغدود ، وعشرين من أقاربه والكثير من سكان الأعراش .

ورغم بقاء القوات الفرنسية عدة أيام في المنطقة ، فإن سي زغدود ومجاهديه استطاعوا الإفلات من هذه الحملة الشرسة التي قادها الجنرال لافونتان، فخرجوا سالمين من منطقة عنابة واتجهوا ناحية سكيكدة .

لقد انتشرت بسرعة بطولة سي زغدود وانتصاره على الجنرال (لافونتان) في منطقة إيدوغ بين أعراش الشمال القسنطيني كله من عنابة إلى بجاية وكثر مؤيدوه . ولم تستطع القوات الفرنسية أن توقف جماحه وتقدم ثورته إلى أن قرر القائد الأعلى لقوات الاحتلال لعمالة قسنطينة الجنرال "براقي ديليي" القضاء على ثورة السلطان سي زغدود ، فخطط لخروج أربعة حملات كبرى في وقت واحد ، تضم أكثر من أربعة آلاف جندي فرنسي وأكثر من ألف من القومية الجزائريين ، من مثلث قسنطينة وسكيكدة وعنابة وقالمة ، لتلتقي كلها في مثلث " سكيكدة ، عزابة ، تمالوس " . فخرجت الحملات يوم 13 أفريل 1843 في وقت واحد ، وحوصر سي زغدود من كل الجهات . وبعد عشرين يوما من الحصار والقتل والحرق وإتلاف الأرزاق، ونهب الحيوانات التي شملت كل المنطقة الممتدة من القل إلى عنابة شمالا ومن قسنطينة إلى قالمة جنوبا . خرج يوم 3 مارس 1843 م الكاتب الخاص لسي زغدود - حسب ادعاء المصادر الفرنسية - ليخبر قائد منطقة سكيكدة بمخبأ رئيسه السلطان " سي زغدود " . وفي الحين بعث معه فرقة عسكرية من الرماة بقيادة الكابتان " مونتكناك "

ومجموعة من قومية القايد " بوروبي " ، واتجه الجميع نحو مخبأ سي زغدود ، فخرج هاربا عندما شاهد الطابور العسكري متوجها نحوه وكاد يفلت منهم ، لكن الرماة أطلقوا النار عليه وأردوه قتيلا، وأخذوا جثته وعرضوها في سكيكدة والحروش وقسنطينة.

احتفل جيش الاحتلال والمعمرون بهذا الانتصار ، وظنوا أن المنطقة خضعت لهم ، وأن ثروتها الغابية والسمكية وأراضيها الخصبة أصبحت في متناول المعمرين . لكن بعد استشهاد سي زغدود ، ثار أحد المرابطين واسمه " سي محمد بودعلي "، في جوان 1843 في المنطقة ، حيث انضم إليه سكان الناحية الممتدة من عنابة إلى بجاية . وقام من جهة أخرى أحد الثائرين واسمه " ابن يمينة "، حيث حاصر الجيش الفرنسي على الطريق الممتد من عنابة إلى الحروش ، وطلب من القائد الفرنسي الاستسلام والدخول في الإسلام .

وهكذا انتهت مقاومة سي زغدود سنة 1843 ، والذي أعلن نفسه سلطانا على البلاد ، وعين له خلفاء في معظم الأنحاء وشن حرب عصابات ضد المشاريع التوسعية للمستعمر الغازي من تعبيد طرق ومنشآت صناعية لاستغلال الفلين في جبل إيدوغ ، والصيد في ساحل المرسى وتصدير الثروة السمكية إلى فرنسا .

كان جموع المواطنين من سكان الريف والساحل يساعدون سي زغدود ، كما ساعده وجهاء القوم من الأعراش من أولي

البأس الشديد، الذين جسدوا ملحمة الشيوخ في جبل ايدوغ ورأس الحديد .

الكبلوتي الحناشي .. الحنانشة يزدادون ضراوة:

ظهر بالمنطقة شيوخ زعماء ، قادوا المقاومة الشعبية تحت لواء الأمير عبد القادر بصورة مستقلة ومن الزعماء الذين تعاونوا معه "الحسناوي بن بلقاسم" شيخ الحنانشة، كان الحسناوي شيخا على العيايشة وبني مزلين، تحت رئاسة عمه الحاج مبارك ، واضطر أحمد باي إلى اعتقاله ، لكنه استطاع أن يفر من سجنه ، وبقي ينتقل ما بين جبال الأوراس ومنطقة الكاف وعنابة، انضم إلى صفوف الثوار المعارضين للاحتلال الفرنسي ، وأخذ يشن الغارات على المستعمرين وأعوانهم .

وقد راسل الحسناوي أحمد باي تونس ، يخبره بلجوئه إلى تونس (وطن السلام) ، كما أن الأمير عبد القادر راسل محمد الحسناوي ، بواسطة خليفته محمد الصغير بن عبد الرحمن يحثه على الثبات ، لكن الظروف في النهاية أرغمته على الهزيمة .

أثناء تمرد الشيخ الحسناوي وعزله وسجنه ، عين خلفا له الرزقي، الذي كان كاتبا لدى الشيخ ، ثم قاد الثورة أحد أبنائه محمد الكبلوتي الحناشي.

إن البوادر الأولى لثورة الكبلوتي ، بدأت مع تمرد جنود الصبايحية الجزائريين في الطارف وبوحجار ، وعين قطار قرب سوق أهراس ، وعلى شريط الحدود التونيسية إلى سهول عنابة ،

حيث تجمعوا مع عائلاتهم غاضبين على قرار إرسالهم إلى الحرب في بروسيا ، في مكان يدعى " هنشير موسى " ، وكان عددهم يقارب250 فارسا بأمتعتهم وأسلحتهم ، وتوالى تجمعهم وانضم إليهم عدد كبير من أهالي الحنانشة ، بقيادة أحمد الصالح بن رزقي وأخيه الفوضيل ، وعائلة الهوام من أفراد " فرج البوكحيلي " . وكان من أسباب هذه الثورة ، تنكر السلطات الاستعمارية لتعهداتها ، ذلك أن الصبايحية حسب عقود عملهم مع السلطات الفرنسية ، إنما يمارسون أعمالهم في أرض الجزائر .

وظهرت حركة ثورة أخرى عند اللاجئين الجزائريين بتونس أمثال أولاد الطيب الشعابني ، صاحب الشهرة الواسعة بالمنطقة ، الّذي هاجر إلى تونس عام 1868 ، ومحمد بن بوعلام رئيس أولاد يعقوب ، الذين ظلوا ثائرين ومتمردين أكثر من عشرين عاما ، ولهم صلات متينة بزاوية نفطة الرحمانية ، ورئيسها مصطفى بن عزوز العدو اللدود للفرنسيين ، والذي حول زاويته إلى ملجأ للاجئين والمطرودين الجزائريين .

عندما اندلعت ثورة الصبايحية بالحدود التونسية الجزائرية ، ولما عاد الشريف عبد الله إلى الوطن من تونس ، ظهرت ثورة الكبلوتي في جانفي 1871 في حدود عنابة وضواحيها من تبسة وسوق أهراس ، بمساعدة محي الدين بن الأمير عبد القادر الذي قدم من طرابلس الغرب إلى نفطة ، والتقى ببعض وجوه المقاومة ،

عنده قامت ثورة الكبلوتي على أشدها بمساعدته في وقتها كان الأمير بتونس ، أين قلده باي تونس وسام الافتخار .

وفي هذا الوقت كان محمد الكبلوتي لاجئا بتونس ، فانضم إلى المتمردين ، وقاد هذا التمرد الذي شكل خطرا على الجيش الفرنسي ، فقتل المتمردون ضابطا وأضرموا النيران في مزارع المعمرين في حقول المنطقة ، وقتلوا تسعة منهم ،وزحفوا على سوق أهراس ، وحاصروها لمدة ثلاثة أيام ، وقطعوا خطوط الهاتف التي تربطها بقالمة وعنابة .وخاضوا معركة عنيفة قرب عين سنور - غرب سوق أهراس - فارتفع عدد القتلى إلى خمسة عشر شخصا ، ثم انسحب الصبايحية والكبلوتي ومن معهما إلى الحدود التونيسية ، حيث الشيخ الميزوني الذي استقبلهم بحفاوة بالغة بمدينة الكاف.

وقد طبقت السلطات الفرنسية إجراءات قاسية ضد عائلات الثائرين، وحاكمت عددا كبيرا منهم أمام محكمة عسكرية استثنائية بعنابة ، أصدرت الحكم بالإعدام على خمسة منهم ، أعدموا في ساحة العين بسوق أهراس - ساحة الاستقلال حاليا - بعد فك الحصار عن المدينة مباشرة ، وبالأشغال الشاقة على عشرين منهم ،وبالنفي إلى كاليدونيا وكيان على أربعين آخرين، وغرمت البعض منهم ، وصادرت أملاك سبعة دواوير بالجملة .

ظل الكبلوتي الحناشي يشن الغارات والهجومات على الفرنسيين في منطقة الحدود مابين القالة شمالا إلى عنابة ، فإلى

تبسة جنوبا. وهكذا نجد الكبلوتي قد شارك في ثورته محي الدين بن عبد القادر ، ودعمه من بقي معه في تبسة ، وذلك بعد عودته إلى الحدود ونزوله بتراب أولاد بن غانم ، فبعد أن شن الهجوم على سوق أهراس ، وخاض المعركة حلولا بمكان يقال له " الصرية " بوشتاتة . وقد كان دائم الاتصال بسكان المنطقة ، كما راسله المقراني والشيخ الحداد ، وقام بعدة اتصالات خارج تونس ، وبقي على هذه الحال إلى أن أرغمه باي تونس ، رفقة بن شهرة على الرحيل ، فركبا الباخرة يوم 02 جوان من عام 1875 من حلق الوادي إلى بيروت ، واستقرا إلى جانب محي الدين بعض الوقت ، ثم ذهب كل إلى غايته .

وبعد سنوات رجع الكبلوتي إلى تونس ، ونزل بين قبيلة جلاص في البادية وهم لايعرفونه ، ولما علم به شيخ قبيلتهم ، أمسكه وأخبر الوزير مصطفى بن إسماعيل ، فسجنه في داموس رطب في حلق الوادي .

وبقي في ظلمة ذلك القبر وتداعت قواه ، من رطوبة الداموس وأحاط به المرض ، فنقل إلى المستشفى الصادقي ، وأقام هناك للعلاج إلى أن قضى نحبه وذلك في شهر أفريل من عام 1884 ، عليه رحمة الله .

أحمد الروشي .. بطل ملحمة إيدوغ وبني صالح:

أحمد الروشي من طليعة الأبطال ، الذين صنعوا تاريخ المنطقة ، وتحولوا بعد سقوطهم في الميدان إلى مشعل على الطريق ، وأنشودة يتغنى بها الأجيال والأحرار.

المجاهد البطل والرافض المتمرد ، لم يكن رجلا فقط ، بل كان رجلا محنكا ، خبيرا بالسياسة مطلعا على أحوالها.

أحمد الروشي ، كان المثال في شجاعته وصبره وثباته ، وصلابة عوده؛ صلابة الصخر .. كان طاقة من الحزم والعزم .

كالنسر فوق قمة جبال بني صالح وجبل إيدوغ ، قاد قبيلته من نصر إلى نصر ، وألحق بفرنسا أضرارا ، وأقضَّ مضجعها ، حتى نعتوه بالروشي ، تابع فلول العدو في الأراضي التونسية ، وقطع خطوط الاتصال ، نزل مدينة عنابة فاستقبله مواطنوها بحفاوة ، مكبرين فيه روح المقاومة والعناد .

أحمد الروشي بطل شعبي مازالت الذاكرة العنابية ، تحتفظ بذكراه بقوة وبمعاركه ، وتنسج حولها الأشعار ، كان يقضي لياليه بحمام القائد مختفيا .

زعزع أركان " بلاس دارم " بهجوماته ،ذهب ضحية غدر أذناب فرنسا ، فكان شهيد المنطقة الخالد خلود الزمن ...

نزلت قبيلة بني صالح إلى السيبوس من الدرعان إلى الحجار وبعض أفرادها كانوا في اتجاه بوحجار ، تمر السنون إلى عام 1908 وشرع أحفاد القبيلة يأخذون في الاحتكاك برجل قبائلي جبلي ،

أصله من بلاد القبائل اسمه (أمقران موحا) حل بالمنطقة ، وشرع في الدعوة إلى الثورة والتمرد والعصيان، هذا الرجل الذي حدثه أبناء المنطقة بأن الاستعمار أحرق أراضيهم ، واستولى على أموالهم ، وظل موحا يزرع بذور النفور من المستعمر في وسط قبيلة بني صالح .

البداية كانت مع اثنى عشر رجلا ، كانوا أتباع أحمد الروشي ، حامل لواء الوطنية الحقيقية بالمنطقة ، والذي كان باستمرار يتعرض للسجن ، ولم ير النور إلا خلال الخرجات ، التي كان يمثل فيها أمام رجال الدرك للتحقيق ، هذا الرجل الذي سيعلن الثورة والجهاد في جبال بوحجار ، هذه الجبال التي توحي بلهيب الثورة والتمرد ، حيث أن الأوضاع كانت متردية للغاية، والاضطرابات قد شملت الشرق القسنطيني إلى الحدود التونسية .

هذا الصالحي من قبيلة بني صالح ، يحمل اسم أحمد الشابي بن علي، وأطلق عليه الاستعمار " أحمد الروشي " ، ثم صار علما مشهورا باسم " الروشي " ، ولد خلال عام الوباء ، نحو عام 1884 ، عندما تفشى مرض الكوليرا بالمنطقة .

عاش يتيما مع أخويه سعد ومبروك ، لقد عاشوا جميعهم تحت رعاية عمهم ، الذي كان يعيش بدوره في حالة يرثى لها .

وفي سن العشرين، بالرغم من سمعته التي توحي بالبؤس والشقاء ، كان يقوم بأعمال تبعث على العجب. كان قصير القامة

لايتجاوز طوله متر وستين ، لكنه كان من القوة بحيث يستطيع مواجهة أكثر من شخص واحد.

وعلى هذا استحق لقب الروشي ، وبالرغم من تشققات في قدميه وساقيه من أثر التعذيب ، ظل يحافظ على قوته . كان يتميز باستدارة الوجه مع حمرة، وشعر اصفر باهت ، وله حواجب خفيفة خشنة ، تحتها عينان توحيان بالقوة والصلابة، لايمكن للمرء أن يتحمل نظراتها ، كان سريع النفور ، يثور باستمرار وله استعداد دائم للمصارعة والمواجهة ، لكنه كان طيب القلب مع عشيرته، متوسط الثقافة ، باستثناء حفظه لبعض أجزاء من القرآن مع إجادته نسبيا للكتابة بالعربية .

تعرض أحمد الروشي في سن الطفولة للعقوبات وللسجن من طرف المستعمرين لأنه لم يكن ينفذ أوامرهم ، ولا ينقاد لطاعتهم . كانت له ردود فعل لاتخلو من قوة وخشونة ، وله ميول كثيرة للالتجاء إلى جبل بني صالح ، بعد هجوماته وفي مقاومته ، كما أنه كان مكثرا من الصعود إلى جبل إيدوغ ، حيث فرنسا كانت له بالمرصاد ، وتنصب له المكامن ، وظلت تطالب برأسه .

في رفقة إثنا عشرة رجلامن عشيرته وأقاربه ، بالإضافة إلى أخويه اللذين كانا تحت إمرته ومرشدهم " ا مقران موحا " ، والذي كان يشارك بطريقة غير مباشرة في شن هجوماتهم أو معاركهم ، وكان هدف هؤلاء الرجال تصفية الحساب مع فرقة رجال الدرك

وحراس الغابات ، الذين كانوا أذنابا طويلة للمعمرين والاستعمار ، بمعنى كل الذين يحملون القبعات .

وفي عام 1910 حقق هؤلاء المجاهدون ، الذين لم يستطع المستعمر القبض عليهم، بعض الأهداف ، ولزموا الجبال وسيطروا على الطرق ، وقطعوا على عربات المسافرين الطرق الرابطة بين عنابة والقالة وبوحجار وسوق أهراس وجندوبة . هذه العربات التي كانت تقودها ستة أحصنة في اتجاهها إلى بوحجار مع طلوع الفجر وفي رفقة المسافرين رجال الدرك ، وقد استطاعت الجماعة إيقافهم كم من مرة. وعند الانتهاء من مهامهم وقتل رجال الدرك ، وسلبهم ونهبهم ، ينصرفون إلى عين الزانة ، التي تمثل وكرهم وملتقاهم .. ثم ينقسمون في اتجاه منحدر أوسهل ، أوفي اتجاه الحدود ، وفي بعض الحالات ، كانوا يقطعون الطريق على القطار في رحلته بين هيبون وسوق أهراس .

وفي مرتفعات المشروحة حيث عربات القطار تكون تسير ببطء ، يعترضون طريقها بوضع جذوع الأشجار ، فتتوقف هذه العربات وبعدها تشعل النيران .

يخرج هؤلاء الرجال ، ويصيب الخوف المسافرين ، فيصعد أحمد الروشي ورفاقه، ويقومون بإنزال المدنيين من الفرنسيين والأوروبيين ، وأخذ ما في حوزتهم ، ثم يطلقون سراحهم ، أما العسكريون فيعاملون بمعاملات شتى، وبذلك يصبح أحمد الروشي في موقف قوة . كثرة هذه المناورات والهجومات أحدثت

ضجة في أوساط الفرنسيين ، وأعادت آمال الفلاحين ،كما كانت سببا في انضمام الكثير ، من الشباب إلى هؤلاء المجاهدين الذين زرعوا الهلع والخوف بين المعمرين بقرية " بوكوس "وعين الكرمة. وبعد هذه الأحداث فرقت فرنسا قواتها بعيدا عن بوحجار لكن في الحقيقة لم تخرج عن منطقة نفوذ أحمد الروشي . لقد اصبح الروشي قائدا لهذه المنطقة بدون منازع وأعاد لعشيرته حقوقهم وأملاكهم ، وقضى على نزاعاتهم وخلافاتهم . وبالرغم من كونه أصبح شيخ القبيلة فإن هذا لم يمنعه من مواصلة هجوماته ، ومحاربته للفرنسيين العسكريين .. بعد هذه العمليات طلب السكان من الروشي أن يكون شيخ جماعة عليهم ،وكان مجلسهم فوق سطح المقهى. وعلى شرب القهوة والشاي ، كان يفصل بين أفراد قبيلته ، بعد عزل القاضي وعدلاء المنطقة ، الذين لم يكونوا يحكمون بالعدل ، ولم تكن في يوم من الأيام محاكماتهم علنا على مرآى المواطنين ، بالإضافة إلى كونهم منقادين وخاضعين لعواطفهم ، وحكمهم عادة لايخرج عن فرض تعويضات في إصدار العقوبة ، وعلى هذا فإن القاضي والعدلاء ، غادروا المنطقة لأن سيرتهم لم تكن حسنة ومقبولة .

وفي ما بين 1913 و 1914 ظهرت حركة أحمد الروشي بشدة تساندها في ذلك عشيرة وشتاتة ، حيث انتقلت هذه الثورة إلى الأرض التونسية ، وقضت على ممتلكات المعمرين ، ووصلت إلى عين دراهم ، لكن المجاهدين أحسوا بالخطر ، فتحولوا إلى عنابة

(جبل إيدوغ) . نستطيع القول في البداية كانت محاولاتهم مشكوك فيها بأن تكون لها نتائج في هذه المنطقة ، كان أهل المدينة يستشعرون بالخوف من هؤلاء المجاهدين وأتباع أحمد الروشي ، غير أن حضوره بسوق المدينة ، بعث الاطمئنان والارتياح في سكان هذه المدينة .

ولازال قدماء عنابة ، يذكرون أن الروشي ، كان ينزل من جبل إيدوغ ، ويبيت بحمام " القايد " ، ويستحم ويقضي به الليالي مختفيا ، وكان يثير رواد الحمام بطرائفه ونكته ، التي لاتخل بالحياء أو الأخلاق والآداب .

منذ الحرب العالمية الأولى، وبالضبط عام 1915، استطاع السّجنا ء الفرار من سجون ومعتقلات المستعمر الفرنسي ، ووجدوا عند أحمد الروشي حسن الاستقبال ، وكان يعد هذا من واجبه وهو مرابطا في الجبل ، وكان يحترم هؤلاء السجناء كثيرا ، ويحرضهم على الانضمام إلى كتائبه ، وبمساعدتهم يستطيعون السيطرة على المناطق الجبلية ، وعلى تخوم الحدود الشرقية إلى داخل الأراضي التونسية ، وبالضبط منطقة "طبرقة والكاف" . وعلما أنه في هذه المناطق الواسعة، لايمر القطار إلا برفقة وحدات حراسة ، حيث أن المنطقة كانت مخربة ، والطرق خالية ، وأعمدة الهاتف ساقطة حتى مدينة عنابة .

هذا مما جعل الوضعية جد مزرية ، وأن حالة الفلاحين والسكان جد سيئة ، أما مُلاّك الإقطاعيات من المعمرين، فكان

عددهم كبيرا ، وكانوا يتصفون بالجشع ، ممّا دفعهم إلى دفع الضرائب لأحمد الروشي وجماعته ، وذلك للحفاظ على ممتلكاتهم. وهذا الدفع يعتبر بمثابة هدنة واتفاق بين الطرفين ، فنال الروشي إعجاب السكان ، وصار مضرب المثل في الشجاعة والبطولة ووصلت شهرته إلى كل نواحي قسنطينة وتونس ، وأصبح الشعب يتخذه مثالا في أغانيه وأشعاره :

يا اللي تحب تقاجي عند أحمد الروشي
أولادلك ما يتخصوشي
يعطيك مكحلة وفوشي
وتقاتل الكفار
تكون معانا عروشي
بيدك تخلف الثار

غير أن محاولات رجال الدرك لم تذهب سدى ، حيث ظلت السلطة الفرنسية واقفة بالمرصاد لأحمد الروشي وجماعته ، ونصبت عيونها في كل مكان، وشوهت صورة هؤلاء المجاهدين ، وحاولت أن تفهم السكان أن الروشي وجماعته ، ليسوا إلا مجرمين وقطاع طرق و"فلاقة" ، فضبطت أنفاسهم وأوقعت بهم التعذيب ، حتى يظهر رجال الدرك والعسكريين الفرنسيين بمظهر الشجاعة ، وهذا يعطي نجاحا كبيرا لقادتهم ..

وإنه من المؤلم ومما يحز في النفس ، أن يمر هؤلاء المجاهدون والأبطال في شوارع عنابة وأزقتها مهانين ومذلين ،

و"الأقدام السوداء" تثير هياج المواطنين، فيرمي المواطنون هؤلاء الشجعان بالحجارة والأوساخ. لكن الهياج يتوقف، وينظر المواطنون لبعضهم بعضا ، ويتوقف الشتم والرمي بالحجارة . ويقع الصدام بين السكان والأقدام السوداء ورجال الدرك ، ويحاول الناس افتكاك المجاهدين من قبضة رجال الدرك ، وتقع الحوادث.

وأخيرا يعاود الأخوان (سعد ومبروك) الكرة ، ويشنون هجومات على مواقع عديدة ، وقد استطاع إخوة الروشي التحكم في عدة عشائر ،غير أنهما قتلا حينما فاجأهما العدو في العدو ب (بوكوس) ، وفر القائد أحمد الروشي من بوحجار إلى مكان مجهول . ولم يكشف أمره إلا في عام 1916 من طرف (المكاتب العربية) ، التي أحدثتها فرنسا ، وتوصلت إلى وضع حد لنهايته.

وأن نهاية أحمد الروشي كانت على يد قائد سابق، يدعى "بولغرايف"، كان قد أقيل من مهامه ، وكثير التردد على الروشي في السابق ، فدبر له مكيدة وخديعة.

وبولغرايف هذا حينما كان يكثر من اللقاء بالروشي ، أصبح موضع شك من طرف المستعمر ..كما أن " سي بوطالب الدراجي "أحد أعيان بني صالح، رمي في السجن ظلما لا لشيء إلا أنه كان معجبا بالفلاقة وبشخصية أحمد الروشي.

و(بولغرايف) على الرغم من كونه صديقا حميما لأحمد الروشي ، ظل يدبر مكيدة، تسمح له بالعودة إلى " القيادة " ، وكان الضحية الروشي ، وعلى هذا أحضر مأدبة عشاء ، ودعي

لها الروشي وبعض رفاقه ، في حين كان أعوان فرنسا مختبئين ومحاصرين للمكان بمزرعة (مشط الرقاقمي) بالغرب من بوكوس ، وكلما أحس الروشي بحركة ، فإن بولغرايف يخبره بأن الحركة صادرة فقط من بعض السجناء الفارين ، الذين يريدون الانضمام إليه ، وكانت له فيه ثقة ، ولا يتوقع أن يصيبه بأذى ، ونجحت المكيدة ، وخلال تناولهم لطعام العشاء في الهواء الطلق ، أطلق عليه الرصاص فلفظ أنفاسه .

.. ورواية أخرى تقول إن سبب مقتل أحمد الروشي من بولغرايف ترجع إلى أسباب عائلية ؟

.. وبعد هذه الحادثة ، ظل بولغرايف يعيش في حالة عصبية ، على إثر ذكرى موت أحمد الروشي البشعة ، التي لم تفارقه .

تلك هي ملحمة أحمد الروشي ، وتلك فاجعة النهاية ، وهي نهاية كل عظيم وبطل .

سعيد العمري " هليل " .. " فلاق " حر .. شهيد أبر:

على من المؤكد أن الذين اصطلح تسميتهم - بالمسلحين الأحرار - أوالخارجين على الجماعة ، يظهرون كطليعة للمجتمع الريفي ، ويساهمون في إبراز العنف الثوري الريفي ، ينبئ بقرب قيام وضعية من الثورة والعصيان الشامل .

وفي هذا الصدد ، فإن الوقت الذي تقوم به قوات الأمن بمطاردة الخارج على القانون ، يكثر الهاربون ويلتحقون بالمتمردين الرافضين للتجنيد ، والفارين من الخدمة العسكرية غالبا بالجبال

والأدغال ، فينتظمون في عصابات ويخلقون بذلك جوا من اللاأمن ، ويقومون بأعمال منسقة استهدف لها الفرنسيون .

وبظهور الخارجين على القانون ، ازدادت عمليات اغتيال رجال الجندرمة والقياد سعة واستفحالا ، وشاعت عمليات نهب المواشي ، وحرق مزارع الكولون ، وعرف هؤلاء المتمردون بنعوت كثيرة منها - المنافقين ، ومن أمثالهم ظهر في المنطقة أحمد الروشي" وغيره .

ومن جملة هؤلاء الخارجين على القانون والمتمردين بالمنطقة ، وعلى مستوى عنابة قبيل الثورة التحريرية 1954- 1962 سعيد العمري المعروف باسم "هليل" كان من كبار قطاع الطرق ، وألقي عليه القبض أكثر من مرة ، واستطاع الإفلات من قبضة الجندرمة وآخر مرة ألقي عليه القبض فيها ، كانت في عام 1950 ، وتم سجنه في "غاستو " ، واستطاع الفرار من السجن في نفس العام ، والتحق بالجبل بدوار العلمة ، ومارس كل هجوماته على المزارع وعلى الكولون وعلى القياد ، وهاجم مضجع الجندرمة ، فظلت تطارده من دشرة إلى دشرة ، ومن عرش إلى آخر ، وبلغ بقوات الجندرمة ، أن وضعت مبلغا كجائزة لمن يستطيع القبض على " العمري " المجرم الخارج على القانون ، وبقي فارا على هذه الحالة إلى أن أدركته الثورة فشملته بعطفها.

في أوائل عام 1955 شاعت أخبار " هليل " ، وأنه على استعداد كبير للالتحاق بالثورة ، فقط ينتظر الفرصة المواتية ،

وفعلا ظل يمارس نشاطه من شن عدوان وهجومات على الكولون وجمع الأموال وشراء الأسلحة في انتظار دعوته للالتحاق بالثورة .

وفي نواحي قالمة بمنطقة - قلياني - أخذ العمري يتعامل مع الثوار عن طريق الجبل مع المجاهد المعروف باسم - السبتي بوخريصة - وذلك بتسليمه كل ما تجمع تحت يده من سلاح ومؤونة وأموال ، كان يجمعها العمري من الأعراش والمداشر ، وبوخريصة يسلمها للثورة ، وهكذا سارت الأحوال، وهذا الأخير يسلمها لكل من الساسي وإسماعيل بن الصادق .

وعندما شاع أمر "هليل" في المنطقة ، أمر مسؤول الناحية مصطفى بن عودة عثمان راشدي المعروف باسم "الطيب راشدي" بالقبض على العمري - هليل - وقتله كمجرم خارج على القانون ، وعلى طاعة الثورة.

استطاع سي الطيب راشدي أن يتصل في منطقة - الشرفة - بالشيخ أحمد بن الباهي ، الذي سهل له مهمة الاتصال بالعمري وهكذا أحضر سي الطيب فيما بعد العمري إلى مسئول الناحية بن عودة ، لكن هذا الأخير لمس في العمري قدرة وشجاعة وجسارة تؤهله بالالتحاق بصفوف المجاهدين، وهكذا كان الحال ، فالتحق " الفلاق " العمري إلى فوج سي الطيب . ويذكر هذا الأخير أن العمري دخل في عدة كمائن ، وأثبت قدرته القتالية العالية ، كما لعب دورا كبيرا في تخريب المزارع مثل مزرعة " فليسي" ، ومزرعة " برينتي " بالغرب من "حجار السود"، ومزرعة "فرانسوا"

داخل بحيرة فزارة ، ومما يدل على بطولته ، أنه استطاع في صدام مع قوات العدو ، أن يهلك ويسقط أكثر من سبعة عشرة فردا من صفوف العدو ، وعاد إلى قاعدته سالما .

وهكذا استمر البطل العمري، ينصب الكمائن ويصطدم بجنود العدو، إلى أن استشهد بشعبة بالقرب من دوار العلمة من عام 1959 ، وحاليا أقيم له نصب تذكاري ، رحم اللّه الشهيد " الفلاق " والمجد والخلود للّه ، والعزة للّه ولرسوله وللمؤمنين ، وللمجاهين في اللّه حق جهاده ، وللوطن وللشهداء .

المصادر و المراجع

المصادر والمراجع المتعلقة بسيدي حرب :

1- شهادة السيدة ريزي فاطمة ، تدعى " حربي " حفيدة محمد أخ " امحمد بلحربي " البطل ، تقيم الآن بسيدي فرج بالقرب من " سيدي عيسى " عنابة أكتوبر 1989.

2 - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر الجزائر - 1982

3 - خنوف علي، السلطة في أرياف بايلك الشرق الجزائري ، مطبعة العناصر الجزائر، 1999

4 - H’sen Derdour ,Annaba , 25 siècles de vie quotidienne et de luttes , tome 2 ,S.N.E.D,Alger 1983

5 - Capitaine Maitrot , Bone militaire ,Bone 1912

المصادر والمراجع المتعلقة بسي زغدود :

1 - خنوف علي : السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق ، مطبعة العناصر الجزائر - 1999

2 - حميدة عمراوي : جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية ، دار البعث الجزائر - 1984

3- Capitaine Maitrot ,Bone militaire ,Bone 1912

المصادر والمراجع المتعلقة بمحمد الحناشي الكبلوتي :

1- محمد السنوسي : الرحلة الحجازية ، الجزء الثالث ،تحقيق علي الشنوفي ، الشركة التونسية للتوزيع والنشر - 1878

2- الحاج أحمد باي ، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ، ترجمة العربي الزبيري ، الشركة الوطنية الجزائر - 1973

3- يحي بوعزيز ، كفاح الجزائر من خلال الوثائق ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر - 1986

4- جمال قنان ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ، المؤسسة الجزائرية للطباعة 1987

المصادر والمراجع المتعلقة بأحمد الروشي :

1- شهادات وروايات شيوخ من عنابة عن انتفاضة أحمد الروشي ، جمعها المؤلف ، نوفمبر - 1989

2- أغنية "يا اللي تحب تقاجي عند أحمد الروشي " ، أغنية مشهورة متداولة لدى سكان عنابة وضواحيها .

_ H’sen Dardour ,Annaba,25 siecles de vie quotidienne et de luttes,tome 2,S.N.E.D, Alger 1983

المصادر والمراجع المتعلقة بسعيد العمري " هليل " :

1- شهادة سي الطيب راشدي عن " سعيد العمري " ، عنابة 19 أوت 1992

2- عبد القادر جغلول ، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ، ترجمة سليم قسطون ،دار الحداثة بيروت ، ط1 - 1984

3- عدي الهواري ، الاستعمار الفرنسي بالجزائر 1930 - 1962 ، ترجمة جوزيف عبدالله ، دار الحداثة بيروت - 1983